النتاج الجديد

يا عنب الخليل

للشاعر عزالدين المناصرة

منشورات ـ دار العودة ـ بيروت

... لمع في الاونة الاخيرة جيل جديد من الشعراء الشباب الذين يأتون مباشرة في الصف التالي لجيل الرواد في حركة الشعر الجديد رغم وجود جيل وسط لم يستطع ان يصل الى مستوى الرواد وفي ذات الوقت لم يصل في مستواه الفني الى مستوى الجيل الجديد جيل : حسب الشيخ جعفر ـ ممدوح عدوان ـ عزالدين المناصرة ـ امل دنقل فايز خضور ـ على وجه الخصوص . هذا مع وجود جيل وسط يمتلك الاداة الفنية جيل : محمد عفيفي مطر ـ خالد علي مصطفى ـ فواز عيد ـ ابراهيم ابو سنه ـ علي كنعان ـ كمال عمار وغيرهم .. ولكن الجيل الجديد اكثر تفوقا من الجيل الوسط بالتأكيد .

* * *

عزالدين المناصرة واحد من شعرائنا الشباب الذين انبتوا بشعرهم صلابة حركة الشعر الجديد بلغته العربية الصافية وعلاقته الحميمة بالتراث العربي الذي يفوح من كل سطر في قصائده .. هذا مع وجود التكنيك الفني الممتاز والحديث جدا .

وقد أصدر عزالدين المناصرة مع الشاعرين مهران السيد وحسن توفيق مجموعة شعرية مشتركة باسم « الدم في الحدائق » صدرت في القاهرة .. ولكن مجموعته الشعرية الجديدة « يا عنب الخليل » هي في اعتقادي مجموعته الشعرية الاولى .

وأول ما يلفت النظر هو عنوان المجموعة .. العنوان فلسطيني جدا ... ورغم فلسطينية الشاعر في قصائد هذه المجموعة .. فان قصائده اكثر التصاقا بالعروبة .. بدليل ارتباطه بالتراث العربي واتجاهه القومي الانساني الواضح . وعنوان المجموعة كما يبدو في قصيدته « يا عنب الخليل » التي تحمل اسم المجموعة .. عنوان فلكلوري لانه مستمد من اغنية شعبية فلسطينية « خليلي يا عنب » ... وليس هذا تركيزا على اقليمية الشاعر ـ كما كتب بعضهم ـ لان لوركا وبدر شاكر السياب يعتبران اقليميين بهذا المعنى ... كما ان عزالدين المناصرة ليس شاعرا اميا شيوعيا كما حاول بعضهم ان يفسر تكراره لبعض الصور الانسانية بانه شاعر شيوعي .

والحقيقة ان الفكر القومي الانساني يمتد على طول مجموعته .. وقد اعتمد بعض من كتبوا عن المجموعة بان تكراره لصفة « الكنعانية » دليل على اقليميته .. والحقيقة ان هذا الخطأ يقع فيه كثير من النقاد ... لماذا ؟... لان الكنعانيين عرب ونحن نعترف بهذا ـ تاريخيا ـ عندما نحاول ان نثبت ان حق العرب التاريخي في فلسطين حق ثابت بدليل وجود العرب الكنعانيين .

كما ان قوله :

هل أنت تريدين
ان نبقى في الصين
نحن المنفيين !!

او قوله :

والنقوش الحمر في صدر العلم
منذ ان كنت ربيعا مهملا
علمتني : كيف تقبيل القمم

او غيرها من الصور المتفرقة .. لا يدل على انه شاعر ماركسي.

* * *

والان الى ديوان « يا عنب الخليل » منذ البداية .. في بداية الديوان نجد ان الشاعر قد اختار بعض الابيات الشعرية من الشعر العربي القديم ليقول لنا : الى اين يتجه ديوانه .. فبعد قراءة الابيات المختارة تشعر ان الاختيار لم يكن عبثا بل ان كل بيت يدل على تجربة من تجارب الديوان :

... القصيدة الاولى في الديوان « ملحوظة اولى » قصيدة مركزة جدا توضح حال الفلسطيني في المنفى بعد الخامس من حزيران :

رسائل تجيئني مختصرة
حروفها معدودة كأنها من ذهب او ماس
أهكذا يعيش كل الناس !!!
أم وحدنا نموت فوق النطع تحت القاطرة
رسائل ثلجية الاحساس
لكنني نسيت أنها مغامرة
ان نكتبي حرفا به مرارة الشوق ..
وصدق الذاكرة
نسيت ان كل حرف في الكتابة
قد صممته هيئة الصليب والرقابة
بداية نهاية مكررة
يا حزن قد ذوبتني
رميتني للعتبات المقفرة .

وفي قصيدته الثانية « ناطوران » نرى اثر الاغاني الفلكلورية واضحا في شعره في المقطع الاول من القصيدة ... ولكن المقطع الثاني ـ كما يبدو ـ مقطع سياسي وانا اختلف مع الشاعر في تصوره ... ولكني لا أستطيع ان افرض عليه ان يحب ما احب .

اما قصيدته « يا عنب الخليل » فقصيدة رائعة الموسيقى تتسلل الى القلب من خلال النغم والصور الفلكورية الشعبية ... (الاعور الدجال ـ جنية المقابر ـ خليلي يا عنب).. شعر المناصرة في مثل هاتين القصيدتين « يا عنب الخليل » و« ناطوران شعرٌ فلسطيني بلا جدال :

سمعتك عبر ليل الحزن اغنية خليلية
يرددها الصفار وانت مرخاة الضفائر ..
انت دامية الجبين
ومرمرنا الزمان المرّ يا « حبرون »
يعزّ عليّ ان القاك مسبيه

* * *

سمعتك عبر ليل الصيف اغنية خليلية
تقول تقول : يا عنب الخليل الحر .. لا تثمر
وان اثمرت كن سما على الاعداء كن علقم .

... ولكن متى تحققت النبوءة ؟ هذه القصيدة مكتوبة في عام ١٩٦٦ ـ كما هو مكتوب في ديوان « الدم في الحدائق ولعلها قصيدته « اغنية كنعانية » المنشورة في الآداب ـ مايو ١٩٦٦. نضيف لهذه القصيدة قصيدته الرائعة « زرقاء اليمامة » التي نشرها في ديسمبر ١٩٦٦ من الآداب ايضا ثم تبعه الشاعر امل دنقل وعمق الرمز في قصيدته المشهورة والتي تحمل نفس العنوان .

* * *

ولعل الدارس لشعر المناصرة .. لا يمكن ان يخرج من شعره دون ان يلاحظ ملاحظة هامة جدا وهي ارتباط الشاعر بالتراث العربي القديم : التاريخي والادبي .. فانت تقرأ القصائد التالية : تظاهرة ـ في الرد على الاحبة ـ زرقاء اليمامة ـ قفا نبك ـ المقهى الرمادي ـ موسى بن ابي الفسان ـ ذهب الذين أحبهم ـ رسالة الى فروتا » وبعض مقاطع قصيدته « من اغاني الكنعانيين لتجد ان ارتباط الشاعر بتراثه العربي ارتباط واضح وقد اصبح ظاهرة بل مميزة من مميزات شعره. ولعل اهم شخصين من تراثنا قدمهما لنا الشاعر عزالدين المناصرة

في اطارهما الرمزي العصري .. هما شخصيتا : امرىء القيس ـ وزرقاء اليمامة » بشكل خاص ... ان رائحة امرىء القيس القديم تفوح في شخصية امرىء القيس العصري العربي الفلسطيني .. وقد استغلهما الشاعر ببراعة تامة تثبت قدرته اللغوية والموسيقية في دمج التجربة المعاصرة بالرمز القديم ... الفلسطيني يحوم في البلاد يبحث عمن يعينه في استرداد ارضه السليبة .. كما حام امرؤ القيس في بلاد الروم باحثا عمن يساعده في استرداد ملكه المغتصب وفي أخذ ثأر والده .. اما النتيجة فهي نفس النتيجة التي انتهى لها امرؤ القيس :

ايها الوادي الخصيب
ربما مرّت على القبر هنا يوما حمامه
يا حمامات السهوب
أبلغي عني التحيه
قبل موتي للحبيب
داره السمراء شرقيّ اليمامه
وأنا أسقط مهزوما الى يوم القيامه

هذه الابيات تمثل رحلة الانسان الفلسطيني من ٤٨ ـ ١٩٦٧ .. اما بعد ذلك فلم يكتب عنها المناصرة ... ولعله يفعل في قصائده الجديدة .. لعل الشاعر ينتقل من الخمر الى الامر .. وان كان قد صور مرحلة الخمر السياسية تصويرا جميلا في قصيدتيه « قفا نبك » و « المقهى الرمادي » :

ثم يمضي الملك الضليل للمقهى القديم
كللت حيطانه خضر الطحالب
ونسيج العنكبوت
كل ما فيه يموت
ها هنا أدفن رأسي
في كؤوس الشاي حمراء وفي لون الخطب
ها هنا ادفن يأسي
في رمال دنسوها .. لم تكن
غير هذا الكذب ... ما ينمو بأعماق الزمن
واقول : اليوم خمر وغدا ... يا غرباء
اسكتوا يا غرباء
« فوراء الثار » منا خطباء
ووراء الثار منا حكماء

* * *

وعندما يصل امرؤ القيس الى قيصر الروم يطلب مساعدته ولكن يبدو ان القيصر قد ماطله ، يلقي امرؤ القيس الجديد قصيدته «(ظاهرة)» امام القيصر الجديد بأسلوبه الساخر :

مولاي قيصر الزمان في بلاد الروم
وقاهر الهكسوس والمناذرة
تعبت يا مولاي من عدّ النجوم
من المفامرة
تأمرني بأن أشدّ فوق جرحي ... ان أصوم
تحضني على المكابره .
مولاي قيصر الزمان في بلاد الروم
وقاهر الهكسوس والمناذرة
يا من خراج ملكه يضيع في القفار
مولاي يا من ملكه بلا حدود
وجيشه عرمرم
يجتاح بحر قلزم
ويستعيد ملكنا المفقود .

* * *

ويستغل الشاعر اسطورة ايزيس واوزيريس فيسجل يأسه تحت وطأة الهزيمة منتظرا حوريس البعيد جدا في قصيدته « يا بعيدا » ان الشاعر يقف في نهاية القصيدة يصرخ كما صرخ لحم اوزيريس المتناثر في ارجاء الارض .. ولعل اهم قصائد هذه المجموعة الشعريةهي: (قفا نبك ـ المقهى الرمادي ـ في الرد على الاحبة ـ زرقاء اليمامة) بشكل خاص ... ولعل استغلاله للتراث العربي هو الذي اكسبهامتانة لغوية وموسيقى شعرية فحلة فرغم ان الشاعر يتحدث عن خمر ومنفى امرىء القيس الا اننا نلمح شاعرا اخر في نفس الفقرة التي توحي بالحديث عن امرىء القيس .

لو مات فارسك المجيد ومات ناطور الشجر
فادفن عظامي ... يا حبيبي
تحت كرمتنا على الجبل العتيق
تتعتق الايام والاعوام
ويشح في الشام المطر
تنمو وتخضر العظام
فادفن عظامي ... وانتظر
يوما من الوادي شروقي
اني لاخشى الموت في المنفى فمن
يروي عروقي ؟ ؟

.... الا ترى معي رؤيا »ابو محجن الثقفي« حين قال في ابياته انه يريد الموت تحت شجرة عنب :

ولا تدفنني في الخلاء فانني ..
اخاف اذا ما مت الا اذوقها

وهكذا لم تعد الصورة المستمدة من التراث لشاعر واحد بل تجمع كامل التراث الشعري كله .. وهذه هي براعة الشاعر المعاصر ..وقد يظن بعض الشعراء الناشئين ان الارتباط بالتراث ارتباط قسريولكن العفوية الشعرية التي يتسم بها شعر عزالدين المناصرة تجعل الارتباط بالتراث ليس امرا سهلا كما حاول بعضالناشئين ان يفعل فيطرح الاسم القديم بلا مبرر ولا ذكاء في التناول .. بل نجد الفلكلور الفلسطيني في ثنايا القصيدة التي تتحدث عن شخصيةتاريخية ... خذ مثلا قصيدة « موسى بن أبي الفسان » .... يقول الشاعر

ايا طفلة القصر هيا افتحي
فحمحمة الخيل سوف تهيجك ..
هيا افتحي
تباهين بالكحل في جفنك الجارح
ونحن نباهي باسيافنا

... رغم ان هذه الفقرة تعبر عن تطلعات موسى بن ابي الغسان لان يجد الجيوش القوية التي تستعيد غرناطة .. فهي ماخوذة ـ بلا شك ـ من الاغنية الشعبية الفلسطينية :

يا بنت ياللي ع السطوح
طلي وشوفي خيولنا
انت غواك كحلكي
وحنا غوانا سيوفنا

ولا يقتصر هذا على معرفة المناصرة بالاغاني الشعبيةالفلسطينية بل يثبت لنا ان له معرفة بالاغنية المصرية ففي قصيدته «(المقهى الرمادي)» نجد :

....وفي لون البنفسج
ايها الزهر الحزين
رغم هذا انت تبتهج
فاترك الاحزان يا أزرق دعها للسنين
آه لو تعرف حزن الاخرين
ايها الزهر الحزين

ولعل الشاعر كان ينظر الى اغنية صالح عبدالحي عن البنفسج عندما كتب قصيدته

ليه يا بنفسج
بتبهج
ونت زهر حزين ... الخ

* * *

...وبعد .. فلا ابالغ اذا قلت .. ان كل سطر شعري في ديوان « يا عنب الخليل » يستمد ايماءاته من الفلكلور الشعبي العربي ومن التراث الادبي والتاريخي .. هذان هما الدعامة الاساسية في شعر الشاعر بل لعلهما حبه الوحيد ..

... ولعل كل قصيدة من قصائد المناصرة تثير نقاشا طويلا ومتعدد الجوانب مهما كانت تبدو بسيطة لديه ... لان قصيدة المناصرة تحمل في طياتها كثافة وثقافة وبساطة وعفوية فاذا اردت ان تقرأ الشعر للاستمتاع لم تجد اية صعوبة في قراءته ، فشعره سهل ينساب الى النفس انسيابا رقيقا فيه غضب القوة وحزن الثائر المهزوم واذا اردت ان تدرس شعره والمؤثرات الثقافية فستجد وراء كل قصيدة عشرات القصص والحكايات الشعبية وعشرات القصائد من التراث العربي تتسلل الى شعره وتتحد معه اتحادا تاما ... ويلفت انتباهنا : اللغة العربية الاصيلة الشعرية .. والفهم العميق الواعي لمعنى الواقعية في الشعر كما نجد في شعره صورة الانسان الحقيقي بكل ابعاده :الاقليمي والقومي والانساني ..

عمان — سعيد السالم

اشواك الوردة الزرقاء

شعر عبد الجبار عباس

اعرف ان صاحب هذه المجموعة الشعرية التي تحمل عنوان « اشواك الوردة الزرقاء » ناقد بارز سلك في عداد اهل القلم من رعيل الادباء الشباب منذ سبعة اعوام ، حيث عني بالرصد التقييمي والتناول الموضوعي لدواوين الشعر الحديث والمجاميع القصصية والاعمال الروائية مسلطا عليها نظراته النافذة وملاحظاته الثاقبة آيبا منها بالاحكام المنصفة والاستنتاجات الدقيقة بلا ادنى لون من التعالم او العجب ، وثمة مفارقة طريفة يلحظها المستجلي في اهتمامات هذا الناقد الاديب وتغلب على مياسم وخصائص اسلوبه الكتابي، انه رغم ـ تخرجه من كلية الآداب ـ جامعة بغداد ـ التي تعنى بتدريس طلابها مادة الادب العربي ، بحسب التقسيمات التاريخية التي اصطلح عليها الباحثون والدارسون من الرادة في مطالع العشرين والتالين عليهم امثال زيدان والاسكندري والرافعي وفروخ والسباعي بيومي وشوقي ضيف ، وذلك يعني انه مر حتما بمعطيات اعلام النثر في الادب العربي القديم ووقف عند روائع الشعر منه كذلك ، وفرغ من دراستها واستيعابها واستقصاء ما يميز الشواهد الحية منها من الاسر والجزالة والرشاقة والاحكام ، وجماع ما تعارف عليه النقاد القدامى في مجال الاشادة بالاعمال الادبية من سمات الاداء المطبوع وعناصر التعبير المشحوذ ومقومات البلاغة الحقة ، رغم ذلك كله فهو لا يعول على مادة التحصيل الاكاديمي او الجامعي في اعتمادها مصدرا مفنيا في دراساته الادبية والنقدية ، انما يلحظ القارىء كثرة استشهاده ، ان احوجه ذلك ، في الاستدلال على صحة مسلمة نقدية او نقض راي يقف ضده بما يسطره الدارسون المحدثون من العرب والافرنج ، فالحداثة او العصرية ان شئت هي اغلب ما يسم نتاجات عبد الجبار عباس ، وهذا لا يعني بطبيعة الحال محض استهوان للتراث واستخفاف به وتاب عليه ، انما لكل وجهته ، وكل خلق لما هو ميسر له ، كما يقال ، ونزوع الاديب للتمرس بضرب من الاعمال او الاهتمامات الادبية ، تعافها فطرته وتأباها سليقته ، قصد الانتظام في صف من استووا على الامد في ميدانها ومجالها ، هو عين التقليد البليد وصنو المحاكاة الغبية وغاية التفريط بالموهبة الادبية الذي لا يعقب شهرة ذائعة او يستلفت صوبه الابصار والاسماع .

وان يطلع علينا عبد الجبار عباس بهذه المجموعة الشعرية الاولى وهو لم يعرف قراءه بكتابته للشعر وتمرسه بتجربته ومعاناتها من قبل ، ـ وقيامه بنشر بعض المقطعات والقصائد في احيان قليلة ، قد لا يكون كافيا تمام الكفاية للشهادة الاجماعية له بمكنته من التعبير الشعري والاقتدار عليه ـ ليس من قبيل المغامرة الوخيمة العقبى السيئة النتائج ، ففي كيان كل اديب منفتح الرؤى ، مرتبط بقيم العصر ، تواق لمحو ما يشين وجه الحياة من صور القبح والدمامة ، نفحة من هذه الروح الشعرية الدالة على استجماع اصحابها في شخوصهم وذواتهم لقدر من رهافة الحس ورقة الشعور حتى وان عبر عنهما بطريقة النثر .

تتمثل في هذه المجموعة جماع تجارب الشباب العربي من جيل الستينات الذي شهد تحولات الثورات التحررية التي استجدت في بعض انحاء الوطن العربي منذ بداية الخمسينات وما يزال شررها يلتهب ويتصاعد ليعم مرابع وديارات اخرى منه ، ملويا بالبقية الباقية من الانصاب والهياكل القديمة ، لكن هذا الوطن الكبير ليس منعزلا عن جهات الدنيا او لا يتاثر بما يعصف بها من الحوادث والخطوب ، انما هو ممتزج بها ومتفاعل واياها ، بشكل وآخر ، ورغم ما زخرت به هذه الثورات العارمة المجيدة من العوائد المادية على قطاع كبير من شباب العرب ، فاسلمت كثيرا منهم للوظائف او للحصول على شهادة الجامعة، بعد ان كان ذلك غير ميسور الا لنفر محدود من ابناء البيوتات المثرية ، فان ما صحبها من الحوادث وتعرضت له من الهزات وحاق بها غير مرة من الاخطار المخيفة ، واخلقها بالذكر عدوان الخامس من حزيران الذي هدد كيان امتنا ووجودها معا بالمحق والزوال ، وكاد يبلغ غايته لولا الصمود الباسل والمقاومة العاتية واستعادة المغلوب المنهزم لثقته بممكناته وايمانه بحتمية الانتصار .

اقول ان هذه الحوادث الجسام وقفت حائلا ، غير مرة ، بين الشباب العربي وبين استمتاعه بجني ثمار النصر ، فاستحال فرحه حزنا ، وأمله يأسا ، وتبدى انه لم ينعم بعد في ظل هذه الثورات المظفرة بما يطفىء شوقه الى العدل وتوقه الى الحرية ونزوعه الى الخلاص التام من كل ما يسلمه الى الحيرة والضياع . وكذا نجتلي ميسما من الحزن الكارب يغلب على النتاجات الادبية ، يبغي منه اصحابها الايماء الى تلكم الرغاب المجهضة والاماني المخيبة ، التي حال الزمن الظالم دون تحققها ، فالحياة ليست خبزا تمضغه الافواه ولا نقدا تملأ به الجيوب ويستعان به وقت الحاجة لاشباع بعض مطالب الجسد والروح . انما هي انعتاق محض من الترهات والاباطيل ، انسلاخ تام من الاضاليل والاوهام ، وتحرر كلي من جميع ما يلزم الانسان ـ بمجاراة اهواء غيره واقتفائها والنزول عليها والانطلاق منها موقفا وخطة عمل .

فلا غرو ان نزع الناقد الشاعر عبد الجبار عباس الى التعبير عن هموم ابناء جيله وتصوير ما يختلج في وجدانهم من الاشواق والتطلعات، وتشيع في ادائه نفس القوالب والاشكال الفنية الغالبة على معطيات الشعر الجديد التي اقامها رواده الطالعون من استعانة بالرمز والصورة ، ولجوء الى الغموض والغرابة ، وتعويل على الايحاء والاسطورة ، بديل القالب القديم بتراكيبه القاموسية وانغامه الضاخبة وتعبيراته المباشرة ، وهذا لا يعني ان الشعراء المحدثين متماثلون في طرائقهم التعبيرية ، متشابهون في صياغاتهم الفنية ، فبينهم الاصيل والمقلد ، وبينهم من يطبع شعره بميسمه على غير مألوف غيره من التعمل والتقليد .

بعد مفتتح وجيز عن (ولاده القرن العشرين) تستهل به المجموعة يجيء بيان صغير معرفا برسالة الشعر ودوره الخطير في اشاعة القيم الخيرة واستحثاث الانسان على محبة الحياة والتعلق بها والنضال في سبيلها :

الشعر خطى فوق الرمل ـ وصوى للجوعان الهائم ـ تجلوها الريح وتخفيها ـ فخطى الذاكرة المقرورة ـ تتسكع في الرأس الواجم .

فالشعر لم يعد جرسا موقعا او لفظا منمقا ، انما له دور اخطر واهم من الادلال برصيده من الابداع في الصياغة والبراعة في النسج ، دوره ان يصير المستحيل ممكنا ، ان ينفث في الاقدام قوة تعين على اجتياز رمال القفار والصحاري فلا تفور في اعماقها وتغوص منها الى القرار ، وكان الشاعر القديم ، يقول ان الشعر يفجر الثورات والانتفاضات ويعصف بالطغاة والمستبدين ، ومن هذين الشاهدين يستبين الفرق جليا بين منحيين من مناحي التعبير والتجسيد .

وبقية الشاعر من تناول موضوع الاسطورة السومرية القديمة ـ ملحمة كلكامش ـ التي عني بها من قبل وعبر اكثر من قصيدة الشاعر والباحث والمفكر العراقي عبد الحق فاضل ، ان يخلص منها ، من طريق الايحاء والتشخيص والمعاودة على موضوع تحالف جلجامش وانكيدو لمقابلة الوحش خمبابا ، الى الايحاء بجملة معان ومضامين قد تكون قديمة اخلقها التداول ، لولا ان حظوتها بالشمول والبقاء ، على تعاقب الدهور والعصور ، يحوج الى صياغتها مجددا .

من هذه المضامين والمعاني الباقية التي يدع مهمة ترديدها وترجيعها الى (الكورس) في غاية من التحديد والتركيز والخصوصية ، التسليم بقدر النساء وما ينطبعن به من النزوع للكيد والشغب ، وهذه مسالة غير مقطوع بصحتها لدى البعض ويلزم في ملتهم ومنطقهم تصحيحها ، وكذلك اعتماد الغلظة والمخاشنة في التعامل والآخرين ليسلم المرء من قوارصهم ولذعاتهم ، فالكورس ينشد ، بما يشبه الامثال من ناحية الاداء المركز :

هي افعى فاحذر ملمسها ـ باب لا يصمد للريح ـ نار لا تلبث ان تخمد . وينشد كذلك في مجال الانحاء على انكيدو باللوم ، ان اطمأن الى خلو مفاوز الطريق وشعابه من المخاوف والاهوال :

كنا حذرناك ولكن ـ يا كاشف اسرار الابد ـ لم تلبس من جلد الاسد ـ ثوبا وتهيم على وجهك .

وكان الشاعر الجواهري يصرخ قبل اربعين عاما في مجال المعارضة السياسية :

أرى القوم من يقذع يقرب اليهم ومن يجتنب يكثر عليه التحامل

وما يشبه لغة الامثال نجتليه في قصيدته : قطرات مختلفة فوق بحر :

وكل عابر ـ مزاره منفاه ـ ... لا ينقذ الغريق ـ غرقى ، ولكن ربما اسعده ـ ان تلمس الخطى معا قرارة الماء .

ويذكرني المثل الاول بقولة انطون غطاس كرم ، غداة نعي بشر فارس رائد الرمزية في ادبنا الحديث : « رب عزلة كانت مزارا لا غربة » . وغايتنا من ذلك التدليل على ان لمطالعات الشاعر الوافرة من الكتب الادبية والنقدية والفكرية التي يعول عليها في صقل ملكته وتثقيف ذهنه ومواكبة الحركات الادبية الحديثة في مساراتها ووجهاتها، اثر ما في الجنوح لصياغة بعض المقولات والمسلمات المستقاة من الحياة الواقعية والتي تحظى منه بالقبول والموافقة وتملي عليه تجاربه الذاتية تصديقها واقرارها والقطع بصوابها .

والذي يقرأ بعض كتب الفلسفة ، ويعنى بقراءة بعض الروائع والشوامخ الغربية مترجمة او بلغاتها الاصلية ، وعن له ان يحلق بخطراته وتهويماته الفكرية على طريقة الشعراء اصحاب التحليقات الفنية ، لا بد ان ينشد في آن :

وفكرت ماذا لو اني هنا الان ـ في لحظة مثل هذي اموت ـ اذن لاسترحت ـ اذن لارحت .

ومن قبل انشد شاعر من اليونان (والنص على عهدة مترجمه الدكتور نعيم عطية) :

« آه لو كان الله قد وأد عقلي وروحي حتى لا اشعر بضياعي».

الم نقل انا لسنا منعزلين في همومنا ومتاعبنا عن بني الانسان في رحاب الدنيا ؟.

وعلى غرار ما ينزع اصحاب اليوتوبيات او الحالمون بالمدن الفاضلة التي تخطط لها افكارهم ومخيلاتهم ، ينزع الشاعر الى انتقاء المفارقات واستبعاد النقائض من حياة الناس ،واجتلاب عالم يشرق بالصفاء والنقاء :

سأجهد ان يتوازن جنحا الحمامة .
فلا يعتريها اذا حلقت في صفاء الاعالي اضطراب
سأجهد ان يتآكل ظفر العقاب
ويرحل عن زرقة الماء ظل الطحالب
فتصفو بثغري التريب القصيدة
وينقى من الدغل المر حقلي الصغير .

الى آخر قائمة الحلم الجائل في معظم الموجودات والدقائق الملموسة في الكون والناس والطبيعة ومفاد ذلك ان الشاعر الجديد يتمثل روح عصره ويستقي من موحياتها ما يثري وجدانه ويذكي شاعريته ويغني مجتناه من رصيد الفكر الى جانب ما فطر عليه من تلهب العاطفة وتدفق الشعور فلا يجعل من شعره محض الفاظ موشاة ، او عبارات منمقة تحكي خواء في المعنى وفجاجة في المضمون ، او تتناول اليسير البسيط من المعاني غير الدالة على اكتناه للاسرار وغوص في الحقائق وتساؤل حول الوجود . بل يدفع به رصيده من معطيات الفكر الى تعميق تجربته وتأصيل ادائه ، ويستحثه على ارتياد الافاق الانسانية الرحبة والانتظام في رعيل التائقين لعالم امثل تتحقق في ظلاله انسانية الانسان .

واحسب ان الناقد الشاعر عبدالجبار عباس ، يكاد يكون في عموم قصائده ، نسيج وحده ، في تمرسه بصياغة معانيه الشعرية الزاخرة المحتفلة بتأملات الفكر وخطرات الذهن وتهويمات الروح الفني، وان يعول على معجم السياب اللفظي في مقطع من قصيدة « حكاية قديمة » :

فرددت الحناجر بورك الرب
تفطر قلب هذي الارض يا مطر
او يقتفي ادونيس في قصيدة بطاقة بيضاء :
راحل والعراق ـ
في دموع أبي ، فالفرات
فدمي ، نحو من بعد لم يولدوا
أتمرى باسمائهم ، فرؤوس النخيل
تتسامى معارج ، والجبهات البراق .

احرى ان يعد من قبيل التأثر بالمحفوظ القديم من ان نخاله تقليدا مفتضحا او محاكاة شائهة .

العراق ـ الهندية

مهدي شاكر العبيدي

التعليم في اسرائيل

تأليف : الدكتور منير بشور وخالد مصطفى الشيخ

يحتل هذا الكتاب مركزا هاما في سلسلة الدراسات التي يصدرها مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية من بيروت. ويستمد هذا الكتاب اهميته من اهمية الموضوع الذي يعالجه . فالتعليم في اي مجتمع يعتبر من اهم واخطر العوامل المؤثرة والفاعلة في حياته والقادر على رسم مصيره وتحديد ابعاد مستقبله .

ومعالجة ظاهرة التعليم في المجتمع الاسرائيلي تتيح لنا التعرف على الاسلوب الذي ينتهجه عدونا في تربية واعداد ابنائه وتنشئة مواطنيه ، وتكشف لنا عن الاهداف التي يتطلع اليها هذا العدو . وكيف يستخدم التعليم كوسيلة لتثبيت عدوانه والغزو والاحتلال فما احرانا نحن العرب باستخدام التعليم كوسيلة لدحر العدوان ومقاومة الغزو والاحتلال .

والكتاب يشتمل على (٢٤٧) صفحة من القطع المتوسط ويحتوي على عشرة فصول . وقد عالج المؤلفان في الفصل الاول قيام دولة اسرائيل وفي الفصل الثاني المجتمع الاسرائيلي من حيث تكوينه والقوى الاجتماعية داخله والاهداف التربوية للمجتمع الاسرائيلي . وفي الفصل الثالث عالجا نشأة نظام التعليم في اسرائيل وتطوره ، وفي الفصل الرابع عالجا موضوع التعليم الالزامي وفي الفصل الخامس موضوع التعليم الثانوي وفي الفصل السادس التعليم العالي ، وفي الفصل السابع تعليم الكبار وفي الفصل الثامن التعليم في الكيبوتس، وفي الفصل التاسع تعليم العرب في اسرائيل ، وفي الفصل العاشر خلاصة وانطباعات عامة .

وهكذا فان هذا الكتاب قد عالج ظاهرة التعليم في اسرائيل من جميع جوانبها وابعادها سواء من ناحية التاريخ لهذه الظاهرة او من ناحية الفلسفة والاهداف التربوية او من ناحية المناهج الدراسية او من ناحية مراحل التعليم المختلفة وانواع هذا التعليم او من ناحية الادارة التربوية والتمويل ... الخ ما هنالك من قضايا ذات علاقة مباشرة او غير مباشرة بظاهرة التعليم .

وفي المقدمة التي افتتح بها المؤلفان كتابهما يقولان :« ان صراع العرب مع اسرائيل لا يقتصر على الجانب العسكري او السياسي او الاقتصادي بل هو قبل كل شيء صراع حضاري وعلمي يتمثل في المواجهة بين حضارة غربية قوية مجلوبة قامت في فلسطين المحتلة وحضارة عربية ناشئة لم تتحدد معالمها بعد ، واننا على يقين ان نتائج هذا الصراع تتوقف في السباق الاخير على ما يحدث في مدارس اسرائيل وفي مدارس العرب يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » .

وهكذا فان جوهر الصراع بيننا كعرب وبين اسرائيل كدولة مغتصبة يمكن ان نحدده على انه صراع بين المعلم العربي والمعلم الاسرائيلي . هذا اذا فهمنا كلمة (معلم) بمعناها العام الشامل .ومن خلال هذا التحديد يمكن ان نقول بان الذي خسر المعركة في (٥)حزيران سنة ١٩٦٧ هو المعلم العربي . وان اية تفسيرات لاسباب نكسة حزيران تتجاهل هذه الحقيقة انما هي تفسيرات سطحية . وعلى هذا الاساس يمكن ان نقول بان الدعوة الى الاصلاح والتغيير في حياتنا العربية اذا لم تتخذ هدفا لها اصلاح وتغيير الانظمة التربوية العربية فان هذه الدعوة ستبقى دعوة صوفية وسحرية . وبكلمات اخرى يمكن القول ان نقطة البدء في اي اصلاح او تغيير اجتماعي يجب ان تتم داخل جدران المدرسة العربية . والدعوات التي انطلقت في البلاد العربية من جميع المسؤولين والمفكرين العرب والتي دعت الى الاصلاح السياسي او العسكري او الاقتصادي انما تتجاهل جوهر كل اصلاح وهذا الجوهر هو النظام التربوي في البلاد العربية ، وان اية مطالبة بالاصلاح لا تبدأ بالنظام التربوي انما تبحث عن اصلاح النتائج وتترك اصلاح العلل والاسباب .

وعندما بدأت طلائع الغزو الصهيوني والهجرة اليهودية الى فلسطين في اواخر القرن الماضي لم تستخدم البندقية ولا المدفع في هذا الغزو ، بل باشرت نشاطها بافتتاح المدارس التي بثت من خلالها في الاجيال الصهيونية مطامحها واهدافها وسلحتهم باسلحة العلم والمعرفة لتعدهم وتمكنهم من الانتصار في المستقبل في المعركة العسكرية . وعندما تحقق لهم الانتصار العلمي والثقافي واستكملوا اعداد الاجيال اصبح الانتصار العسكري امرا محتوما .

ولقد اوضح المؤلفان الاهداف التربوية للمجتمع الاسرائيلي وكشفا عن حقيقة مؤداها ان الارتباط بين اهداف المجتمع الاسرائيلي وحاجاته وبين اهداف التعليم الاسرائيلي اوثق صلة واوضح للرؤيا مما هي الحال في بلدان اخرى ، وذلك يرجع الى طبيعة اسرائيل كدولة اصطناعية تقوم على اساس استجلاب اليهود من مجتمعاتهم الاصلية وصهرهم في بوتقة جديدة . وتبرز التربية كاحدى الوسائل الهامة ولعلها الوسيلة الاهم في عملية الصهر هذه . ومن هنا يمكن ان يستخلص المدقق ثلاثة اهداف رئيسية للتعليم في اسرائيل :

١ ـ تكوين مجتمع عضوي موحد من اشتات اليهود التي تجمعت في ارض فلسطين .

٢ ـ بناء دولة عصرية تملك اسباب القوة المادية فيها والروحية .

٣ ـ المحافظة على التراث اليهودي ونشره وتعميمه بين الناشئة اليهود في اسرائيل وتحويل اسرائيل لتصبح مركز الاتصال بين يهود العالم اينما وجدوا والممثلة الرئيسية لمنجزات الشعب اليهودي .

اما المصادر التي تستمد منها اسرائيل هذه الاهداف فيمكن حصرها بثلاثة مصادر :

١ ـ الدين اليهودي كتجسيد لمعتقدات اليهود وحامل لتراثهم عبر التاريخ .

٢ ـ الحضارة الغربية بمقدار ما هي حضارة عقلانية علمية .

٣ ـ الحركة الصهيونية كخلاصة تاريخية للتفاعل بين المصدرالاول (الدين اليهودي) والمصدر الثاني (الحضارة الغربية) والناتجة عنها قيم معينة تتلخص بالريادة ، والعمل المنتج والعدالة الاجتماعية .

ولقد جاء في القانون الرسمي للتعليم الصادر سنة ١٩٥٣ تحديد اهداف التعليم في اسرائيل بالشكل التالي :« ارساء الاسس التربوية على قيم الثقافة اليهودية ومنجزات العلم وعلى محبة الوطن والولاء للدولة وللشعب اليهودي وعلى ممارسة الاعمال الزراعية والحرفية وعلى التهيئة لوجود رائد ، والعمل على تشييد مجتمع تسوده مبادىء الحرية والمساواة والتسامح والتعاون ومحبة الجنس البشري ».

ويمكن ان نلاحظ بعض الاتجاهات البارزة في التعليم في اسرائيل وهي :

١ ـ التأكيد على الريادة

٢ ـ التعلق بالارض

٣ ـ تنمية الروح العسكرية

٤ ـ التأكيد على اللغة العبرية

واذا بحثنا في جذور الحركة الصهيونية نجد انها كانت واعية منذ نشأتها للدور الذي يمكن ان تلعبه التربية في تحقيق اهداف الحركة في الغزو والاحتلال والاستعمار والقتل والتدمير لسكان فلسطين الاصليين . فقد بدأت الحركة الصهيونية نشاطها بمدارس الارساليات اليهودية وبالمدارس العبرية او الصهيونية وكانت هذه المدارس متنبهة منذ بدايتها الى رسالتها العدوانية من ناحية الحاحها

على التعلـق بالارض (اعتمـاد اعلى اساطير دينية) وتنمية الروح العسكريـة والتأكيد على اللغـة العبريـة كاداة لصهر المجموعـات الصهيونيـة المتنافـرة والتي قدمت الى فلسطين من بـلاد متعددة . وقد اثمرت هذه السياسة التربوية وحققت اهدافها وانتجت جيـلا صهيونيـا يؤمن بالغزو والاستعمار والاحتلال والعنصرية والتعصب وكان ضحيـة هذه الاهداف العدوانية الشعب العربي في فلسطين .

ويمثل التعليم في (الكيبوتس) مظهرا من مظاهر التعليـم فـي اسرائيل الذي يقوم على زرع روح الغزو والاحتلال والسيطرة والعدوان في نفوس ابناء الجماعة (الكيبوتس) وتربيتهـم تربيـة تعاونيـة وتشجيعهم على العمل في الارض والمساواة التامة بين الجنسين وتنمية الروح العسكريـة العدوانية . ويشكل تعليم العرب في اسرائيل وصمة عار في جبين الصهيونية ويبـرز دولـة اسرائيـل كدولـة عنصريـة استعماريـة متعصبة . فتعليم العرب في اسرائيل وجهه عربي والـدم والروح فيـه يهوديان . فهدف التعليم يتعارض روحا وجوهرا مع تراث الاقليـة العربية ، وان نسبة التعليم بين السكان العرب في اسرائيـل منخفضـة جدا اذا مـا قورنت بنسبة التعليم عند السكان اليهود، وان اوضاع مدارس العرب في اسرائيل مؤسفـة من حيث عدم توفرالمعلمين العرب المـؤهليـن ، وعدم توفر الابنية المدرسية الملائمة ، وعدم توفـر الدعم المالي والتجهيزات والمختبرات والمكتبات والملاعب ، ومـن حيث تخلف التعليم المهني عند العرب وطغيـان التعليم النظري في المـدارس العربيـة .

والانطباع الذي يبقى في الذهن بعـد دراسة اوضاع التعليم فـي اسرائيل هـو الملاءمة بيـن اهداف التعليم في اسرائيل من جهة وبين اهداف الحركـة الصهيونيـة وحاجات المجتمع الاسرائيلي واوضاعه من جهـة اخرى . ولقـد استطاع هذا التعليم ان يحقق اهدافه في الغزو والقتل والدمـار والاغتصاب واستطاع ان يقيم دولته في اسرائيل على اشـلاء الشعب العربي في فلسطين . كل هذا بفضل خطة تربويةمحددة الاهداف والاساليب والوسائل ، ومستندة على مطامح الشعب اليهودي في اقامـة وطن قومي على ارض فلسطين العربية .

ومن خلال التعرف على اوضاع التعليم في اسرائيل ، ومن خـلال التعرف على الجهود الجبارة التي يبذلهـا عدونـا في هذا المجال يتكشف لنـا عمق المسؤوليـة التي يجب ان تلعبهـا المؤسسات التربويـة فـي البلاد العربية ، وتحدد ابعاد الاهتمـام الذي يجب ان يوليه مجتمعنـا العربي لانظمته التربويـة .

فنحن احوج ما نكـون الى اعادة النظر في انظمتنـا التربويـة لنتحقق من مدى ملاءمة اهداف التربية العربية لواقع المجتمع العربـي وتطلعاته واهدافه . وهذه الملاءمة لا تتحقق الا مـن خلالاستقراء عميق لواقع المجتمع العربي وتاريخه وقيمه من جهة ولواقع شخصية الانسان العربي حتى تاتي هـذه التربية متجاوبة مع اشواق الانسان العربـي ومنسجمة مع الدور الذي سيضطلع به في معركة التحدي التي يواجهها. ان معركتنا مع اسرائيل ليست معركة وقتية وليست معركة واحدة ، انها معركـة مصير ، ومعركة وجود واذا اردنـا ان نصنع المصير ونحقـق الوجود فـلا بـد من ارساء قواعـد هذا المصير والوجود في واقـع مدارسنـا حيث تصنع الرجال وتعد الاجيال ، وعند ذلك يمكـن انتقول بثقة واطمئنان المقولة المشهورة : « واخيرا انتصر المعلم العربي » .

احمد الخطيب

اعنـاق الجياد النافـرة

شعـر فـواز عيـد

منشورات دار الآداب ـ بيروت

في هذا العرض الموجز لديوان « اعناق الجياد النافـرة » انمـا نحاول استجلاء الخيوط الاساسية التي نسجت قصائد هذا الديـوان والتي يمكـن ان نقول عنهـا انهـا السمات الرئيسية لازمـة الانسان العربي الواعي لكل هذا الضياع الفكري الذي يعيشه جيل الشبـاب في اكثر من بلد بشكل عام وفي وطننا العربي بشكل خاص . هذا الجيل المسلوب الحريـة والذي يلهث في البحث عـن دنيا جديدة عن الاتساق والروعـة وبالتالي يهدف لتحقيق الجمال في الانسان والطبيعة على حد سـواء . فالارض التي انجبت هذه القصائد هي الارض العربية التـي شاءت الاقدار ان تكـون مركزا لاعتى صراع يخوضه طرفـان من البشر المستعمِر والمستعمَر ، المضطهد والمضطهد ، كل هذا ترك جيلنا المثقف الواعي نهبة للقلق والمخاوف والضياع قبل ان يستطيع ان يجد طريقه . وان جيلنـا المثقف الذي اتخم بقراءة النظريات عن وحدة الشعـوب والمصير الانساني والاخوة العالميـة انمـا لزمه وقت طويل نسبيا حتـى استطـاع ان يسلخ عن نفسه تلـك المتاليـة وينظـر للاخريـن نفس النظرة التي ينظـرونهـا اليه ويفهم تلـك الامور التي تخص المصلحـة الذاتيـة الاقتصاديـة لكل فئة من البشر فتحولهم من اصدقاء الىاعداء او بالعكس ، اذن واثناء هذا الانهيـار الشامل لقيم العالم القديـم والمثاليـة العربيـة وقف انساننا حائـرا لا يدري كيف يجد الخلاص فى هذا الزحام . والشاعـر فواز عيـد هـو احـد ابناء هذا الجيل الذي عايش فترتيـن في حياته ان صح ان نقسم حياة الامة العربية الىفصلين ١ ـ من نكبـة فلسطيـن وحتـى ١٩٦٧ الخامس من حزيران ومـا نـال فيه الشعب الفلسطيني مـن ضياع بشكل خاص والشعب العربي ككل بشكل عام ٢ ـ انطلاقـة الثورة الفلسطينية المسلحـة وازديـاد جدية الاستعداد العربـي العسكـري .

اذن فاننا واجدون صدى المرحلتين في قصائد الشاعر فواز عيـد في ديوانه الجديد هـذا .

وهو يجسد كمـا قلنـا مرحلـة الضياع الذي هـو في كثير مـن مراحله انعكاس للضيـاع العام ولظروف القهر والاضطهاد والتردد التي تعيشهـا الشعوب النامية بشكـل عام . ففي قصيدة « طيور الخليج» وهي قصيـدة خصبة مبطنـة بالدلالات والرموز نجـد الشاعـر يصـور لنـا الخليج والبحر في مجال واسع مفتوح ينتظـر من يغامر فيه . والمغامرة هنـا قفزة في المجهول تحتمل النجـاح والفشل وهي بحاجـة للانسان الحاد الحاسم في مواقفه ، ولكـن الشاعـر يطرح لنـا صورته كمـا قلنـا وهي صورة الشباب في تلـك الفترة ، الشباب الحائـر المتردد الذي يخشى المواجهات الجديـة ولا يستطيع ان يطور موقفهبسرعة وحزم من حيز النظريـاتالى حيز الممارسة العمليـة فيبقى فيمواقعه وعلى حـد تعبيـر الشاعـر سجيـن التخوم

يجيء المخاض
ويبقى الخليج يمد يده
وابقى ضريرا وراء الزجـاج
اخبىء وجهي خلف الجـدار
سجين الاحاديث والاشربـة
سجيـن التخـوم

وفي قصيدة «الليل واعمدة الجسور» وهي قطعة فنية رائعة حقـا ببنائهـا الشعري وصورها الجديدة المبتكرة والتـي تنضح بالحـزن والاسى والمرارة انمـا نلمح الضيـاع الرهيب.

كنهر هـائم ابـدا
كشلال يصب وراء حان عامر فتضمني
قارورة الحـــان

او في قولـه

انا والليـل عصفوران .... لا ترويهمـا الشطآن
اذا جاعا .. تمد حقولهـا وبذارهـا الاحزان

فالشطآن تمتاز بالضحالة وهي لا تحقق الخلاص من هذا الضياع فالمطلب شيء اكثر عمقـا واكثر فاعليـة وجدوى ، وهو غير الاحاديث والاشربة وهو غير الواقع الراكـد والاصدقاء الخاملين ان التفاعـل والخصب والعمق مطلب اساسي لحل الضياع حتى لا يستيقظ الشاعـر على مثل هذه الرؤيـة الكالحـة الكابية :

وغدا افيـق وبعـد غـد
للضحكـة البلهاء .. والتبغ الرخيص على المقاصف والمسهر
والاصدقاء الخاملين
والريح والاسواق والكتب الجميلة والرخـام
والشمس والدم والعيـــون

تحيط به وتحاصره وترغمه على التحرك مـن خلالها . حتـــى لا يدور الاثنـان في فلـك حزين يتعذر عنده التمييز بيـن الالم والمتألم ، بيـن الواقع والفكر المدرك ويندمجان في وحدة مرة

اضاعوني .. أنا المجلود والجلاد
انا السكين والجـرح
انا الباكي على الاطلال والمبكـي

وهذا العالم الذي يصوره لنـا فواز عيـد يتخلله الحزن ويغلب على لونه السواد والاسى ليس ناجمـا عن اسباب ميتافيزيقية محضة، انه ليس نتاجـا وعطاء لفكـر اضناه البحث الفلسفي في مشكـلات الفلسفـة الكبرى بل هـو حزن أرضي تمامـا تمتد جذوره بعيدا فـي تربتهـا لتمتص من همـوم البشر الشيء الكثير . ان هذا الشقاء هـو شقاء جيل عربي بأكمله وهو شقاء يملـك اسبابا ومظاهر واضحـــة محددة في قصائد الديـوان . ففي قصيدة « دان دان » نواجه صورة الانسان العربي الذي اجلاه عن دياره الغاصبون والغزاة وزرعوهـــا بالرصاص والدم فهام على وجهه غريبـا يسأل متى يعـود الى وطنـه ووديانه ليزرع ارضه بيده يـرى احبته متى ؟. متى ؟ فلا يجاب الا بصوت واحد هو « دان دان » وهي كلمـة تنضح بالجهل التام ولعلهـا تلخيص لكلمـة لا ندري يجيب بهـا الجمهور على كل الاسئلة الدامية السابقـة .

فمتى ارجع كالنهـر اليهـا ؟
دان دان
واراهـا مثلمـا كانت صبيـة
دان دان
نزرع الارض سويـا ؟
دان دان

وكلمـا مضينا في قصائد الديوان تتوضح لنـا ابعاد الكارثة التي افضت الى كل هذا التمزق :

غريب ذاك ... ليس لديه من خبز ومن ماء
ومن فخـار
وليس لديه ان مرالشتاء عليه ـ موقد نار ـ
دعيه فليس للاغراب من حب .. ومن فخار
وودعها ... وحل بركبتيه ووجهه التعب
تلقفه صبـاح ممطـر وقطـار

اذن فلعلنا نستطيع ان نلمح بسهولة وجه الانسان الفلسطينـــي الغريب الضائع الذي فقـد كل مقومـات الحياة الهادئة والاستقـرار، فقـد كل شيء ، وبفقده لهـا وضيـاع قاعدته الصلبة التراب انغرس القلق والهم عميقـا في صدره

كان لي حقل ودار
ياربـــاب
مرّ بي العمر قشيمـا واستدار
والليالي عبرت مثلمـا مر قطـار
جرفت داري السيول ... جرفتني
مات ابنائـي خليل ونـزار

لان التراب « الوطن» ليس فكرة مجردة او رمزا من الرموز، وفقده يعني ببساطـة فقد كل الاشياء الحبيبة، فقد الماضي والحاضر والجهل بالآتي ، انه الاجتثاث مـن الجذور بكـل ما تحمله هذه العملية من الم على كل المستويـات .

ولم يفلسف حلمه ، لم يفهم الاشيـاء
الا كما يحسها .. يشمها
يفهم قال لي ـ ان الوطـن
ان احتسي قهوة امي
ان أعود آمنـا مـع المساء «(١)»

لذا بقي البحث عن الخلاص مطلبا اساسيا وضرورة ملحة لا يستطيع ان يصرف شيء عنهـا ابناء هذا الجيل . ان كـان هذا الشيء احيانـا صعوبة الطريق او الحواجز والموانع التي كـان هدفهـا تكبيل حركته. لذا نجـد الان ونحـن بصدد الحديث عن قصيدة اعناق الجياد النافرة هذه الجياد التـي يرمـز الشاعر فواز عيـد بها الـى الطلائع الواعية من ابنـاء هذا الجيل ، هذه الطلائع العاملـة في كل الظروف وتحـت كل الضغوط ، لـم نجـد لزامـا علينـا ان ننوه بما جاء فـي الدراسة التي قدم بهـا الشاعر يوسف الخطيب « ديوان الوطن المحتل » وهـو ما مفاده انه بعـد انحسار عام ١٩٤٨ ونكبته اتخذ شكل العالم بالنسبة للفلسطينيين شكلين ١ ـ منفى : وهو كل الارض التـــي لا يظللها علـم اسرائيل ٢ ـ ومعتقل : وهو كل الارض الواقعة تحت ظل العلم المذكور. وبالنسبة للمنفى فـان هذا العالم كـان مخفورا بقوة السلاح والمخابرات وهو شبـه حجر صحي وضع فيه ابناء هذا الجيل من الفلسطينيينوكان الويل والثبور بانتظار كل مـن يحاول التمرد على هذا الواقع من هؤلاء الذيـن يدعوهم الشاعـر بالجياد النافرة :

صهل المهر على التلعـة نادى
فاعتلـى وجـه القمـر
وازدهت في السفح اعراس النبات
ثم دوت طلقـات
عند ذاك :
صـاح في الظلمـة : آه
فاجاب القصب الساهر في الضفـة
« آ.....ه »
عكر الذئب الميـاه

اضف الى ذلك صعوبة الطريق وفتح اعين الجماهير على الواقـع وايقاظهـا مـن خيالاتهـا الرومانسية في رسم طريق الخلاص .واقناعها بضرورة توليها هـي زمـام المبادرة وتقرير المصير ، في مرحلة كان قسم كبير مـن سواد هذا الجزء مـن الشعب العربي لا زال يثق بالاساليب القديمة ، ويظن ان في مقدورهـا حل تناقضاته الاساسية .

---

١ ـ قصيدة جندي يحلم بالزنابق البيضاء « محمود درويش » .

هذه المهمة هي مهمة الجيل الواعي . وكثيرا ما كبت هذه الجياد في الطريق ، كثيرا ما اترع كأسها بمرارة الفشل وكان اليأس في النهاية بالانتظار

وعدت في ريح الصباح
الى القرى فرحا لاوقظها
ألا هبي لم لا « هب بي »
فما ردت
خواء والضحى خلفي

ومثل هذا الشعور بالخيبة عقب فشل المحاولة في ايقاظ القرى وجموع البسطاء الذين يشكلون العمود الفقري لاي ثورة نجده لدى الشاعر محمود درويش حيث يقول هو الاخر

لا يحزن الصياد أن يعود
مرة بلا اسماك
لكنه يحزنه ان تحمل الشباك
بعد نهار الكد
طحلب البحار

لكن على حد تعبير المعنى الوجودي القائل من نهاية ضفة اليأس تبدأ الحياة في الانبعاث من جديد ، او على حد تعبير صيني يقول انه كلما ازداد الظلام ازدادت الحاجة للبحث عن الضوء ، نجد الخامس من حزيران يمثل ذروتين :

١ ـ ذروة ما يمكن ان يصل اليه العرب والفلسطينيون من يأس لم يدم سوى شهور قليلة

٢ ـ ذروة النشاط والاعتماد على النفس بالنسبة لجماهير الفلسطينيين بعد اكتشافها لعقم الاساليب القديمة والانتظار حتى يهبط الحل عن طريق غيرها .

ومن هذه الزاوية نستطيع ان نرى ان الخامس من حزيران كان بدء ميلاد جديد

لكني لكي يفهم كل الناس ما قلت
أعيد
نحن في الخامس

من شهر حزيران
ولدنا من جديد (٢)

وبالنسبة للنتيجة الثانية من نتائج الخامس من حزيران ، ونقصد بها خروج الانسان الفلسطيني الى حيز العمل بشكل سافر ، كان هذا الخروج واضحا في شكلين : اما الشكل الاول فكان القناعة التامة لدى الطليعة الواعية من ابناء هذا الشعب بافلاس الخطب النارية وعجز الاساليب السياسية وحيز العمل النظري عجزا وافلاسا كاملين . فلا نقاش المقاهي بمجد ولا الشعر والنثر يملكان تقديم الحل وتطبيقه ان لم يجاوز مواقعه ليتحول الى نشيد يعلو من خلال المعركة وفوق ارضها . ان هذا هو ما يقوله لنا الشاعر فواز عيد ايضا في قصيدة « السهوب » وكذلك في قصيدة « الاشجار على الضفة » . ففي السهوب نجد ان الشاعر يرمز لنا بها الى ارض المعركة مكان العراك والصراع الذي كان الشاعر يبتعد عنه موقنا ان الكلمة قد تستطيع ان تحل له مشكلته الا انه من خلال النقاش والحوار بينه وبين زميلة ثائرة يتضح له الخطأ الذي هو واقع فيه. هذه الزميلة التي كانت مثله يوما همها قراءة الشعر والنثر ومقارعة الافكار من خلال الجلسات الهادئة وارتشاف اكواب الشاي الساخنة في مقاصف جامعة دمشق ونواديها على وجه التحديد . ان الثائرة لخصت للشاعر موقفها وسبب التحول الذي جعلها على حد تعبيره ثائرة تزرع نارا في التلال بان السبب هو ان كل الاشعار لا تستطيع طبعا ان بقيت كاشعار ولم تدفع بنا الى حيز الممارسة ان تنبت زهرة واحدة في السهوب .

(٢) ـ من قصيدة « حدث في الخامس من حزيران » لسميح القاسم

اما في قصيدة « الاشجار على الضفة » فنجد موقف الثائر الذي تجرع المرارة كل يوم عددا من المرات من خلال قهوته المرة التي كان يرشفها حتى بلغ به الصبر حدود النهاية فاذا به يلقي الكتب ويترك ابناءه وكل شيء ليذهب الى الساح الحقيقية مصمما على ان يمزق اسباب ضياعه وغربته بحد السلاح

وودعناه أهدينا أسفارا
فاخرج مدية معقوفة .. وطوى حقيبته
وضيعناه في بسمة
وتمتم أنتم الاغراب
ولوّح في الصباح وغاب
طوى اوراقه ومضى .. وخلفنا
صفارا ... نقرض الاشعار

اما الشكل الثاني لحركة العرب الفلسطينيين ، فهو حركة الجماهير العريضة ، هذه الجماهير التي كانت تقبع في محطات السياحة او ما يسمى بالمخيمات ولكنها كانت تنام وتقوم وهي تحضن حلمها الجريء الكبير بانفجار الثورة . ولئن كانت في انتظارها ذاك لا يبدو منها للمشاهد البعيد ما يدل على حركتها فاننا لو اقتربنا لوجدناها في حالة ارهاص شديد لتلقف شرارة الثورة فما كادت تشعر بتحرك طليعتها المقاتلة الثائرة ، هذه الجياد النافرة ، وافلاتها من عقالها حتى تهللت منها الاعماق وشعرت بشيء حار يجري في عروقها من جديد . انه دم الثورة وريحها الفتية الحقيقية استطاعت الجماهير الاحساس بها ومعرفتها بطبيعتها النقية وفطرتها السليمة . هذه الطبيعة ذاتها التي كانت تدفعها لان تشيح بوجهها عن كل حرب الاذاعات والميكروفونات وعن كل تلك الخطب التي تشرح طريق العودة الى فلسطين ..

ان اندلاع الثورة الفلسطينية بعد ما ينيف على عشرين عاما انما كان حقا امرا شبيها بالمعجزات ولكن الجماهير لا تفقد ايمانها بالمعجزات ان كانت من صنع الشعب وروحه . كما انها اول من يشعر بها :

ويصهل خلف سور الدار صوت جواد
فتضطرب النوافذ تفتح الابواب
وتهتف شيخة في الركن : ان قد عاد

ان عودة هذا الفارس مع كل ما يحيط بها من الروعة انما تنعكس ايضا انعكاسا صادقا رائعا في قصيدة « الكلدان والمنفى » حيث يستعيد الشاعر شخصية بختنصر ليرمز به وبعودته الى عودة الثائر الفلسطيني والى روح الشعب الثائر

بختنصر عاد حيا
عاد مجنونا وشاعر
سامريات رأينه
كان فوق البرج رمحا

ويتحدث بختنصر فيعرب عن هويته يطمئن الكبار ويبشر الصغار بان الغد لهم وبان ما مضى مضى وبأن درب الآلام انما يخطو فيه هذا الشعب الخطوات الاخيرة

لا تخافوا .. لست ربا حاقدا ...
لا ... لست طيفا
أنا سيف كان مدفونا .. وعاد
كنت في المنفى حبيسا ... ورجعت
لم امت .. نمت قرونا ... وبعثت
وترامت في قرار النهر اصوات رهيبة
الف طوبى للصغار
ألف طوبى للمصلين على ضوء النهار ..

واخيرا اجد من نافلة القول ان الديوان انما كان انعكاسا صادقا لصورة الشباب الفلسطيني في ضياعه وثورته وتقلبه من الحريق الى الحريق عبر المراحل المختلفة التي مر بها .

دمشق

وليد حاج عبد